أنساق ما قبليّات الإبداع في الخطاب التّراثي العربي
ملكة الشّعر أنموذجا

د.عزّاني العارم
جامعة سطيف 2

الملخّص باللّغة العربيّة

أنساق ماقبليّات الإبداع واحدة من مسائل الشّعر العربي ، أدركتها العرب في بيئاتها القديمة ، و قد اهتمّ بتدوينها الخطاب التّراثي الأدبي و النّقدي على حدّ سواء ، و لذا عوّلت العرب على تلك الأنساق لاحتضان ناصية ملكة الشّعر رعايـــة ، حفظا ، تربيّة ، و أخيرا صقلا ، حتى تأخذ بها إلى مدارج النبوغ فنيّا ، لغويّا و معرفيّا ، و لذا ستشتغل هـــذه الأوراق على تسليط الضّوء على تلك الأنساق الماقبليّة للإبداع حتّى تُسْلِم الملكة و صاحبها إلى مدارج النّبوغ الذي يفضـــي إلى مرحلة إنتاجيّة الخطاب الشّعري و عليه، ما هي أنساق ما قبليّات الإبداع في الخطاب التّراثي العربي ؟

الكلمات المفاتيح

الخطاب الشّعري ، الإنتاجيّة ، الأنساق ، ماقبليّات الإبداع ، النّبوغ ، نسق الخطاب المعرفي ، نسق التّربية الصحّيّة نسق الخطاب التّحفيزي ، الملكة ، التّلقّي ، النّص ، المرسلة .

ممّا يُروى في الخطاب التّراثي قصّة طرفة بن العبد مع أعمام له ، و كان و قتها صغيرا ، فعندما مات أبوه قـــرر أعمامـــه اقتسام مال والده ، و في تلك القسمة ظلموا زوجه وردة ، فقام طرفة بن العبد مدافعا عن وردة / أمه ، رادًّا الظّلم عنها ، مستخدما الكلمة التي تقولبت ضمن إطار الخطاب الشّعري فقال [1] :

ما تنظرون بمال وَرْدة فيكم صَغُر البنون و رَهْطُ وردة غُيَّبُ
قد بَعَثَ الأَمْرَ العظيم صَغيرُه حتى تظل له الدِّمَاء تَصَبَّبُ
و الظلم فَرَّقَ بين حَيَّيْ وائلٍ بكر تُسَاقيها المنايا تغلبُ
و الصدق يألفه الكريم المرتجى و الكذب يألفه الدَّنِيُّ الأَخْيَبُ

من خلال هذه الواقعة التي ثبّت خبرها ابن قتيبة ، ندرك أهمّيّة الخطاب الشّعري Discours Poètique في البيئة العربيّة القديمة ، فهو " حماية لأعراضهم ، و ذبٌّ عن أحسابهم ، و تخليد لمآثرهم و إشادة بذكرهم " [2] . من هنا يحصل ارتهان إنتاجيّة الخطاب الشّعري بوظيفيّته داخل بيئته ، فهو لا يأخذ تشكّله إلا تحت تأثير مجموع المتطلّبات المقاميّة ، فإمّـــا أن يكون السّياق Contexte حربيا فتتحوّل كل إنتاجيّة إلى حصن منيع غايتها الدّفاع عن القبيلة / الأمّة ، أو لها أن تكـــون مرهونة بسياق السّلم ، فتشتغل كل إنتاجيّة Productivité على تدوين المآثر و غيرها ، و من هنا اكتسب وجود الشّاعر و شعره الأهميّة داخل المنظومة العربيّة القديمة مذ عهود حلّ العرب و ترحالهم إلى أيّام استقرار المدنيّة فيهم . و بناء على تلك الأهمّيّة و أخرى لم نوردها ، سنّت العرب لها أعرافا ، فأطلقت على هذا المبدع بالكلمة لقب " الشّاعر " Poète ، و جعلته من المقرّبين إلى أنظمتها ، و استقبلت فيه التّهاني ، و هذه الأخيرة قد حصرتها العرب في مواضع ثلاث عدَّدها ابن رشيق و هي : " غلام يولد ، أو فرس تُنْتَج ، أو شاعر يَنْبُغ فيهم " [3] .

يقودنا ذكر النّبوغ عند ابن رشيق إلى انعطافنا صوب مسربين ، أمّا الأوّل منهما فيشتمل على مسائل مرحلة مـــا بعـــد النّبوغ ، حيث تتشعّب المباحث بتسليط الضّوء على الخطاب الشّعري المُنْتج كمرسلة يتمّ الاشتغال فيها على علاقة النص texte بالمتلقّي Récepteur ، أو يمكن للمباحث أن تتمركز حول شعريّة الخطاب الشّعري ، حيث تكون بنية المرسلة هي

المنطلق لإثبات الشّعريّة فيها ، فضلا عن أحاديث أخرى ليس هنا مجال جردها و توصيفها . أمّا المسرب الآخر فيشتمل على مسائل مرحلة ما قبل النّبوغ ، و هي في نظرنا واحدة من مسائل الشعر المغيّبة في الدرس العربي المعاصر . و عليه ، عود على بدْءٍ إلى قولة ابن رشيق " شاعر ينبغ فيهم " ، تستقطبنا هذه الأخيرة نحو جزء من الحقيقة البانية للخطاب التّراثي discours patrimonial ؛ فما أدركنا طرفة يذبّ عن وردة و يدرأ عنها ظلم الأعمام إلا بعد أن تحوّل إلى منتج للخطاب الشّعري ، و الإنتاجيّة لن تتحقّق إلا بعد نبوغه ، و نبوغ الشّاعر لن يكتمل إلاّ في ظلّ توفّر الشّرط الأساس الذي ينبثق من عباءته كل إبداع شعري ، و قد اصطلح عليه ب " الموهبة " Tallent ، أو " الملكة " حسب ابن خلدون ، فالملكة أولا و النّبوغ تاليا . و بعد مساءلتنا الخطاب التّراثي تكشّفت أمامنا مجموعة من الأنساق systèmes السّابقة على الإنتاجية الشعرية ، و هي مبثوثة بين دفتي المتون الأدبيّة و النقديّة على حد سواء و إن كنا قد لاحظنا تواجدها بشكل مبعثر هنا و هناك و بصفة قليلة ، تتغيّا تلك الأنساق احتضان ملكة الشّعر رعاية ، تربيّة ، و أخيرا صقلا ، حتى تأخذ بها إلى مدارج النضج فنيّا ، لغويّا ، و معرفيّا ، فتُسْلِم مجموع الأنساق الماقبليّة الملكة و صاحبها إلى مدارج النّبوغ الـــذي يفضـــي إلى مرحلة إنتاجيّة الخطاب الشّعري و إذا تحقّق ذلك فإنّه سيتواشج مع وظيفيّة هذا الخطاب الإبداعي ، سواء مـــن النّاحيـــة الجماليّة لغاية الإمتاع أو من الناحية الدّلالية المفصلة في البيئة العربية بين الذّبّ عن الحياض و تخليد المآثر و مابين هـــذين الحدّين يبقي الكثير كي يقال .

إن مجموع الأنساق الماقبليّة قد عولت عليها العرب في بيئاتها القديمة كتفريش سابق على انبثاق الشّاعرية ، و قد ثبّت ذلك الخطاب التّراثي ، و لذا ستشتغل هذه الأوراق بتسليط الضّوء على تلك الأنساق ، و قد اقترحنا لها سميّة " أنساق مـــا قبليّات الإبداع pré_creation في الخطاب التّراثي العربي " ، و عليه ، ما هي تلك الماقبليّات ؟

الحديث عن ميلاد الملكة مسبوق بالحديث كيف جهدت العرب في إيجاد ملكة الشّعر poésie في بيئاتها و بيوتاتهـــا ، و ذلك بإخراجها من حالة إمكان الوجود إلى الوجود الفعلي ، و بما أن العملية في جزء منها تتمّ بتدخّل القـــوى العربيـــة أسميناها بنسق " الاستولاد " . و لقد عمدت العرب في ذلك إلى مبدأي " الوراثة " و " الاختيار " ، و هذا الأخير قد حصروه في مواضع ثلاث هي الطّبقة ، الشّرف ، و أخيرا العِرْق الذي منه يتمّ الاستولاد . و لتحقيـــق عامـــل الوراثـــة يختارون بيوتات الشعر التي يتوفّر نسلها على بذرة " ملكة الشّعر " ، فيعملون على نقلها في عقبهم عبر المصـــاهرة ، و بذلك الاختيار يكونون قد أرسوا في محاولة منهم معالم توريث ملكة الشّعر ، وأعدّوا السّبيل لاستولادها في وســـطها الجديد الذي انتقلت إليه ، و هنا نؤكد على أن أوّل ما تحتاج إليه العرب قديما في أنساق ماقبليّات الإبداع هو رعايـــة الملكة بحفظ بقائها أولا و ضمان استمراريتها في الأجيال المتعاقبة ثانيا ، و لا سبيل لتحقيق وجودها إلا بتفعيل نســـق " الاستولاد " ؛ و هو عندنا أوّل الماقبليّات .

و لذا نجد الخطاب التّراثي العربي يأتي على ذكر بيوتات الشّعر ، و بيان هذه الثّيمة مرصود في أخبار طرفة بن العبـــد " أحدث الشّعراء سنّا ، و أقلّهم عمرا ، قُتِل و هو ابن عشرين سنة فيقال له ابن العشرين " [4] ، نقرأ عن أسرتهم العراقة في باب الشّعر ، و ما تأتّى لهم ذلك إلا بعاملي الوراثة و الاختيار فمن ناحية الأعمام له عمّ معروف باسم المُرَقِّش الأصغر و هو من أبرز شعراء العرب و اسمه بالكامل " عَمْرُو بن حَرْمَلَة و قيل ربيعة بن سفيان و هذا أعرف " [5] ، في الوقت الذي كان فيه للمُرَقِّش الأصغر عمًّا مشهورًا في باب الشّعر تذكره الأخبار التّراثية بالمُرَقِّش الأكبر و اسمه عَوْف بن سَعْد . و لم يكن طرفة معروفا من جهة الأعمام فحسب بوراثة ملكة الشّعر ، بل تضيف بطون كتب التّراث شرف النّسب من جهة الأمّ ، فقد كان له خال ، وهو أيضا شاعر عرف بجرير بن عبد المسيح و المشهور في الأوساط الأدبيّة باسم المُتَلَمِّس [6] .

و من بيوتات الشّعر التي تحقق فيها عامل الوراثة أسرة الشّاعر المخضرم كعب بن زهير بن أبي سُلْمى فقد وقع فيها الاختيار على مبدأ العرق المورِّث لموهبة الشّعر ، فكانت النّتيجة " أنّه لم يتّصل الشّعر في ولد أحدٍ من الفحول في الجاهليّة ما اتّصل في ولد زهير " [7] ، فاجتمع فيها الأب / زهير ، و الولد / كعب ، و كان كلّ منهما شاعرا ، كما كان لكعب " ابن يقال له عقبة بن كعب شاعر و لقبه المَضْرَب ... و ولد لعقبة العوَّام و هو شاعر فهؤلاء خمسة شعراء في نسق العوَّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى ، و كان أبو سُلْمَى أيضا شاعرا " [8]

و في الأغاني نجد ذكرا لأميّة بن أبي الصّلت و كيف سرى الشّعر في عقبه ، فقد كان له من البنين أربعا و هم عمرو ، ربيعة ، وهب ، و القاسم . " ... و كان القاسم شاعرا و هو الذي يقول [9] :

قومي ثقيف لإن سألت و أسرتي و بهم أدافع ركن من عاداني

و كان ربيعة ابنه شاعرا و هو الذي يقول :

و نحن خيار الناس طُرًّا بطانة لقيس و هم خير لنا إن هم بقوا "

إنّ استولاد ملكة الشّعر مشروط بأن يعضده " نسق التّربيّة الصّحيّة " و ذلك لضمان فاعليّة الملكة ، فقد حرصت المرأة العربيّة قديما على سلامة النّشأة و التّنشئة ؛ لأنّها كانت على وعي بدور التّنشئة الصّحيّة و مدى أهميّتها في التّأسيس لماقبليّات الإبداع ، و فيما يحكيه الخطاب التّراثي عن ذلك الحرص بغية توفير النّسق الصّحي للمولود ندلّل برواية أوردها أبو عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه الحيوان ، و قد تعلّقت بأمّ الشّاعر تأبّط شرًّا ، فممّا يُروى عنها أنّها قالت : " ... ما ولدته يَتْنًا و لا سقيته غَيْلاً ... " [10] ، و يزيد الجاحظ بشرح اليَتْن و الغَيْل قائلا : " فأمّا اليَتْن فخروج رجل المولود قبل رأسه ، و ذلك علامة سوء و دليل على الفساد ، و أمّا سقي الغيل فارتضاع لبن الحبلى ، و ذلك فساد شديد " [11] . إنّ الأساس في بناء الرّواية هو ارتضاع لبن الحبلى و الذي خصصته العرب بسمية الغيل ، و هو مرتبط عندهم بالفساد على عمومه يصيب المولود " جسديا / عقليا " ، و تأثيره السّالب يسجّل انعكاسه على فساد ملكة الشّعر و لذا تجنبته الأمهات قديما كنوع من الرعاية .

أمّا ثالث الماقبليّات فهو " نسق الخطاب التّحفيزي " ، فبعض الأسر العربيّة قديما ، تقوم بتغذيّة عقول أبنائها بخطابات تحفيزيّة ، حيث تعمل الأسرة على إنتاج تلك الخطابات ثمّ توجّهها إلى الأبناء و هم صغار لم يشبّوا عن الطوق بعد ، فتغرس فيهم صورة التّمايز بالملكة التي سيكونون عليها في مستقبل الأيّام فيظهر الخطاب نمط الموهبة ، كما يعكس في الوقت ذاته تخطيط الأسرة لنوعيّة الموهبة التي ترغب في أن يكون عليها الأبناء و هم في مهد الطّفولة و من ذلك حكاية عن هند بنت عتبة ، و قد حملت ابنها معاوية و هو صغير فكانت تراقصه و هي توجه إليه خطابا تحفيزيّا يحفر في ذاكرته أن يكون متمايزا بين أقرانه نظير ما لديه من ملكة و ذلك في قابل العمر ، فقالت [12] :

إن ابني مُعْرِقٌ كريم محبَّبٌ في أهله حليمُ

...

صخر بني فهر به زعيم لا يخلف الظنّ ولا يخيمُ [**]

تستمر الجهود العربيّة في احتضان ملكة الشّعر رعاية عند أبنائها سواء تبدّت ملامحها فيهم أم لم تظهر و ذلك بتوفير النّسق المعرفي ، و هو مبني على مجموع خطابات معرفيّة متنوّعة التّخصّصات يتمّ تعليمها لأبنائهم وهم صغار السنّ ، و هي تفعل ذلك ، فإنّها تستنبت مولّدات الخطاب الشّعري عند أبنائها من خلال تفريش الأرضيّة المعرفيّة ، كسبب تمهيدي

من غاياته الاشتغال على ملكة الشّعر من خلال صقلها ، إنضاجها و أخيرا البلوغ بها مراتب النّبوغ حتّى تستطيع آداء وظيفيّتها في إطار البيئة التي وجدت فيها .

من بين تلك الإعدادات تعليم الأبناء أنساق طرائق العرب في التّعبير عن المعاني ، فحسب الخطاب التراثي امتلكت العرب أمثالاً " .. و اشتقاقات و أبنية و موضع كلام يدل عندهم على معانيهم و إرادتهم " [13] ، و في سبيل الحصول على تلك المعاني لا بد من معرفة تلك الطّرائق و إلا فسد المعنى الذي هو على طريقة العرب ، و قد نبّه على ذلك الجاحظ بقوله : " لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللّفظ ، و لكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسّخيف للسّخيف و الخفيف للخفيف و الجزل للجزل و الإفصاح في موضع الإفصاح ، و الكناية في موضع الكناية ، و الاسترسال في موضع الاسترسال. و إذا كان موضع الحديث على أنه مضحك و مُلْه و داخل في باب المزاح و الطيب ، فاسْتَعْمَلْتَ فيه الإعْرَابَ انقلب عن جهته ، و إن كان في لفظه سخف و أبدلت السّخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يَسُرَّ النفوس يكربها و يأخذ بأكظامها *** " [14] . فالحرص العربي القديم جلي في الخطاب التراثي ، لغاية الإلمام بطرائق التعبير عن المعاني حتّى يستعان بها في حال بروز ملكة الشّعر عند الأبناء في إنتاج معاني الخطابات الشّعرية ، فتحفظ المعرفة لهم بذلك قاعدة لكلّ معنى مقال و بهذا يتحقّق فهم المرسلة عند المتلقّي .

أخذا بتلابيب صقل الموهبة ، و تهيئتها للنّبوغ ، تحثّ الخطابات التّراثيّة على توسعة الجانب المعرفي الموسيقي ، و هو ما عرف فيما بعد باسم " علمي العروض و القوافي " ، و الغاية من هذا العلم هو الوصول إلى مرحلة إنتاج الخطاب الشعري ، هذا الذي بلغت به العرب مبلغها من حيث تأمين الذّوق العربي ، و إمتاع الأذن الموسيقيّة .

يطرح هذا العلم أصول معرفة ما يجوز و ما لا يجوز في بنائيّة الخطاب الشّعري موسيقيّا ، لأنّ الجهل بقواعده مدعاة إلى إفساد الأذن الموسيقيّة ، و تحويل كل إنتاج موسيقي من حالة الإمتاع إلى حالة التّشويش على الأذن الموسيقيّة ، و لهذا السّبب استدركت العرب أبناءها بتعليمهم هذا العلم الذي تمّ عندهم بادئ الأمر ضمن قالبه المتوارث ، كالطّريقة التنعيميّة على سبيل المثال ، ثم عبر قالبه المقنّن الذي ضبطه الخليل بن أحمد الفراهدي ، فاستدركت العرب أبناءها بتلقينهم الأوزان التي تنظم وفقها أغراض الخطاب الشعري ، و معرفة ما يُتجنب من مجموع الزّحافات و العلل ؛ لأنّه نابٍ عن الأذن الموسيقيّة ، و هذا ما يؤكده الخطاب التراثي عندما يعلل السّرّ في تلك المعرفة كونها راجعة إلى أن " الذّوق ينبوا عن بعض الزّحافات و هو جائز في العروض ... فلولا علم العروض لم يفرق بين ما يجوز من ذلك و ما لا يجوز " [15] ، فضلا عن القافيّة و عيوبها . فكلّ ما يخص علمي العروض و القافيّة إنّما هو نسق يسمح بالتّربيّة الفنيّة لملكة الشّعر حتّ إذا كانت الملكة فإنّها تكون سليمة ، و تساق إلى مراتب النّبوغ و النّضج و هي الغاية المتقصّدة من هذه الأنساق جميعها ، و إلاّ فإنّ الخلل سيكون من نصيب الخطاب الشّعري موسيقيّا فتستهجن الأذن الموسيقيّة كلّ إنتاج شعري و تطرحه جانبا و تعده نقيصة على القوم و على الموهوب لعدم سلامته ، و لذا تأتي أهميّة النسق المعرفي الموسيقي لصقل الملكة بعلومه مطلبا ضروريّا .

و من الأنساق المعرفيّة الأخرى التي تشير إليها الخطابات التّراثيّة العربيّة نسق المعرفة اللّغويّة ، فالأبناء موقوفون على تلقي علوم اللّغة العربيّة لحاجتهم إليها في العمليّة الإبداعيّة ، فهم على حدّ وصف الجاحظ محتاجون إلى " معرفة اللّغة التي هي لغة العرب قدر ما يعرف كل شيء باسمه الذي وضعته له " [16] ، مع معرفة نسق قواعد صرف اللّغة و ما يكون عليه الاسم " من جمع و تثنية و تذكير و تأنيث و تصغير و ترخيم ليورده على جميع ما يتصرف فيه صحيحا غير فاسد " [17] .

و إلى جانب ذلك علم النّحو و ما يحتاج فيه " إلى معرفة إعراب ما يقع له في التّأليف حتّى لا يذكر لفظة إلاّ موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب أو بناء على حسب ما وردت عنهم"[18]

و خارج الأنساق اللّغوية يكون الأبناء بحاجة إلى معرفة أخرى تخصّ " المشهور من أخبار العرب و أحاديثها و أنسابها و أمثالها و منازلها و سيرها و صفة الحروب التي كانت لها و ما لها قصّة مشهورة و حديث مأثور " [19] .

إنّ توفير نسق الخطاب المعرفي لإفادة الملكة منه هو الذي سيحقّق لها التّربيّة الفنيّة و المعرفيّة إلى أن يتم صقلها ، و هذا النّسق الماقبليّ سواء استثمر عن طريق السّليقة أو التّلقين للعلوم بعد تقنينها هو الذي سيسمح للملكة بالنّقلة إلى النّبوغ و حتّى إلى ما فوق النبوغ ، و هو ما أقرّ به الأصمعي ، فالشّاعر عنده لا يصير فحلا في باب الشّعر إلاّ إذا أتقن العلوم السّابق ذكرها [20] ، ليكون كلّ إنتاج شعري بعدها على الطّرائق التي ارتضتها العرب فضلا عن تحقيق عامل الإبلاغ إذا عدّ الخطاب الشّعري رسالة موجّهة إلى متلقّيها فيتحقّق الاستقبال النّاجع لرسائل الشّاعر فإن أطربهم طربوا و إن استحثّهم نهضوا ؛ لأنّه يخاطبهم بما يحقّق الفهم عندهم و التّأثير عليهم .

و من الأنساق المعرفيّة المعدّة للأبناء تحفيظهم الشّعر مذ نعومة أظافرهم ، فإن كانوا أبناء الملوك فَيُتَخذ لهم في قصورهم معلّمين يحرصون على تحفيظهم الشّعر العربي ، من باب رعاية الملكات عند الأبناء ، و من ذلك معاويّة و تعهّده تعليم أحفاده الشّعر ، و هارون الرّشيد الذي اتّخذ لأبنائه معلّمين يحفّظونهم الشّعر . كما سجّل الخطاب التّراثي تدخل الآباء بشكل مباشر في انتقاء مواد صقل الملكة ، و من ذلك خبر هارون الرّشيد الذي خرج يوما على مجلسه " و في يده رقعتان على نسخة واحدة ، فبعث بإحداهما إلى مؤدّب ولده و قال ليُروِّهم ما فيها " [21] ، و قد جاء فيها [22] :

قل لمن ضنّ بودّه و كوى القلب بصدّه
ما ابتلى الله فؤادي بك إلاّ شؤم جِدِّه
أيّها السّارق عقلي لا تضنن بردّه
ما أرى حبّك إلاّ بالغا فوق حدّه

حتّى و إن كان الأبناء من عامّة النّاس و قد بدأت تتبدّى لديهم ملامح ملكة الشّعر ، فإنّهم سيتساوون في حظّ اتّخاذ معلّمين لهم يحفّظونهم الشّعر ، فممّا يحكى عن أبي نواس أبي الحسن بن هانئ مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن ، أنّه قد " انقطع إلى والبة بن الحباب الذي عنى بتأديبه فلمّا مات والبة لزم خلفا الأحمر ، فحمل عنه علما كثيرا ، و أدبا واسعا " [23] .

و في حالة إدراك ملامح ملكة الشّعر عند الأبناء و بروز أوليّات الإنتاج الشّعري ، فإنّ الخطاب التّراثي ينفي تقاعس العرب عن إتمام رعاية هذه الملكة بمزيد من الصّقل و التّهذيب ، بل كان ذاك هو ديدنهم و دأبهم ، فاتّخذوا في ذلك مجموع تدابير أهمّها حمل الأبناء على رياضة القول الشّعري ، و قد اتّخذ له صورة المساجلة الشّعرية مثلما حصل بين حسّان بن ثابت و ابنته ، فكان السّياق كلّه تشجيعا ، صقلا ، مساجلة ، يقول حسان [24] :

مَتَاريك أذناب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع و اجتثثنا أصولها

و بعد إتمامه البيت الأول استعصى عليه إتمام البقيّة ، فأدركت ابنته بفطنتها الأمر فقالت لأبيها هل أجيز عنك ؟ فأمرها بأن افعلي ، فقالت [25] :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا كرام يعاطون العشيرة سولها

فحمى الشّيخ و ردّ عليها :

و قافية مثل السّنان رزئتها تناولت من جو السّماء نزولها

فقالت :

يراها الذي لا يُنْطَق الشّعر عنده و يعجز عن أمثالها أن يقولها

فالفائدة من هذه الحادثة أن البنت و إن كانت لها أوليّات في الإنتاجيّة الشّعرية ، فإنّها تبقى بحاجة إلى الدّربة و المران برياضة قول الشّعر عبر المساجلة ، و هو ما سيوصل ملكتها إلى مدارج النّبوغ أو ما فوق النّبوغ أي الفحولة على حد مصطلح الأصمعي .

و إن لم يكن صقل الملكة من خلال المساجلة بالشّعر فإنّها ستأخذ صفة التّحريض على النّظم بانتهاز مناسبات إنتاج الخطاب الشّعري ، و من ذلك حادثة هارون الرّشيد مع ابنه المأمون ، فقد مال إلى جارية كانت تخدم أباه ، و حين أدرك هارون الرّشيد ذلك وهبه إيّاها ، و كان قد سأله إن قال في ذلك شعرا ، و هنا محطّ التّحريض على استغلال فرص النّظم / الإنتاج ، فأجاب الابن أباه الخليفة بأنّه قد نظم في ذلك شعرا ، فطلب إليه أن يسمعه إياه ، فأنشده [26] :

" ظبي كتبت بطرفي من الضمير إليه

....

فما برحت مكاني حتى قدرت عليه "

إنّ مجموع الأنساق المعرفيّة و على تنوّعها إنّما هي ضروريّة لتربيّة الملكة عند الأبناء فنيّا ، لغويّا ، و معرفيّا ، و لذا أصبح الأخذ بهذه الأنساق حتميّة فرديّة ، و الغاية منها يحوصلها الزّيدي في قوله : " استرساخ المنوال في المخيلة " [27] ، و بذلك تكون العرب قد اختزلت في تعليمها صورة النّموذج المحتذى به في إبداع الخطاب الشّعري ، و لذا أولته كلّ العناية حتّى بعد بروز ملامح الملكة ، و ظهور أوليات إنتاج الخطاب الشعري .

هذه هي مجموع أنساق ما قبليّات الإبداع التي أدركتها العرب في جاهليتها و ما بعدها ، و قد اهتمّ بتدوينها الخطاب التّراثي الأدبي و النّقدي على حدّ سواء ، فلولا هذه الماقبليّات لما كان كعب ، حسّان بن ثابت ، طرفة بن العبد ، و لما كان لكعب ابنه المضرب و للمضرب ولده العوّام ، و لأبي العتاهية ابن له شعر ... ، و غيرهم لا يحصى لهم عدّ من كثرتهم ، غير أنّ أهمّ ما في الأمر ، امتلاك ناصية الملكة / الموهبة في البيئة العربيّة ، و تعهّدها بذرة في رحم الإبداع الأدبي ، بدءا من تاريخ استولادها ، و صولا عند مرحلة استنبات مولّدات الخطاب الشّعري في البيئة العربيّة .

قائمة المصادر و المراجع :

1 ابن قتيبة ، الشّعر و الشّعراء . دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان، ط 3 ،1987 ، ص : 109.

2 القيرواني ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشّعر و نقده . تح عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 2000 ،ج : 1 ، ص : 89 .

3 م ، ن ، ص ، ن .

4 الشّعر و الشّعراء . ص : 110 .

5 العمدة ، ج : 1 ، ص : 131 .

6 م ، ن ، ص، ن .

7 الشّعر و الشّعراء ، ص: 73 .

8 م ، ن ، ص : 76 ، 77 .

9 الأصفهاني ، الأغاني .تح مجموعة من الأدباء ، دار الثّقافة ، بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ، ص: 124 ، مج : 4

10 الجاحظ ، الحيوان . تح : عبد السّلام هارون ، البابي الحلبي ، مصر ، ط 1، 1938، ج:1 ، ص : 286 .

11 م ، ن ، ص ، ن .

12 القالي ، الأمالي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1996 ، ج : 2 ، ص: 116.

** يخيم بمعنى يجبن .

13 الحيوان ، ج1 ، ص : 153، 154 .

*** الأكظام بمعنى مخرج النفس .

14 م ، ن ، ج 3 ، ص : 39 .

15 الخفاجي ، سرّ الفصاحة . دار الفكر ، ط 1 ، 2006 ، ص : 278 .

16 م ، ن ، ص ، ن .

17 م ، ن ، ص ، ن .

18 م ، ن ، ص ، ن .

19 م، ن ، ص : 279 .

20 العمدة ، ج 1 ص : 318 .

21 الأغاني ، مج : 4 ، ص : 99 .

22 م ، ن ، ص ، ن .

23 العمدة ، ج1 ، ص : 140 .

24 الشّعر و الشّعراء ، ص : 193 ، 194 .

25 م ، ن ، ص ، ن .

26 الأمالي ، ج : 1 ، ص : 225 ، 226 .

27 الزّيدي توفيق ، مفهوم الأدبيّة في التّراث النّقدي . سراس للنّشر ، تونس ، د ط ، 1985 ، ص : 78 .